الكناية عند الآلوسي من خلال تفسيره "روح المعاني"

د. محمد حسن عطا المنان *

ملخص البحث

يهدف هذا البحث ـ من خلال دراسة استقرائية تحليلة بلاغية ـ لدراسة اتجاهات الآلوسي البلاغية وبخاصة درس الكناية من خلال تفسيره العظيم (روح المعاني) .

قمت بترجمة للألوسي ، ومن ثم ومن خلال البحث والتفصي وجدت أن الآلوسي يفرق بين الكناية والمجاز ، ويفرق بين التعريض والكناية ؛ والكناية عنده هي الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، وقد وجدت أن الآلوسي عرض لأقسام الكناية المشهورة عند البلاغيين ؛ مما يعني استفادته من علم البلاغة في الوصول إلى دقائق التفسير القرآني، كما أنه عرض إلي بلاغتها في إيضاح المعني والدلالة عليه .

* أستاذ مساعد ، كلية التربية ، جامعة كسلا

مدخل:

الكناية من مفردات علم البيان، مثلها ومثل المفردات الأخرى لها دورها البليغ في إيصال المعنى من خلال الخطاب العربي النثري أو الشعري، وهذه محاولة للمساهمة بإجراء دراسة تطبيقية لدرس الكناية في القرآن الكريم لتنضم إلى بحوث أخرى في هذا المجال ، واخترت لهذه الدراسة تفسير "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم في السبع المثاني" للآلوسي ؛ متلمسا خطاه في كيفية الاستفادة من الكناية تعريفا وتقسيما، وعلاقتها بالمفردات البيانية الأخرى (المجاز والتعريض) في إيصال المعنى من خلال الآيات التي يعرض إليها، وذلك عبر منهج استقرائي تحليلي بلاغي ؛ حتى يجد هذا البحث مكانته من الأهمية في الدراسات البلاغية التطبيقية دعما لمسيرة البحث البلاغي في لغتنا العربية ، وقد رأيت أن أعرض لدراسة الكناية في تفسير الآلوسي من خلال تعريفه لها ، والفرق بين الكناية والمجاز، والتعريض ، وأقسام الكناية المذكورة عند البلاغيين ، بالإضافة إلي بلاغتها، معتمداً على دراسات سبقت في مثل هذا المجال ؛ إذ أستفدتُ كثيراً من دراسة الدكتور أحمد هنداوي هلال للمباحث البيانية في تفسير الألوسي ، ودراسة الدكتور أبي موسي لبلاغة الزمخشري من خلال سفره العظيم "الكشاف" .

أولا – ترجمة الآلوسي

أ – اسمه:

عرفه الزركلي بقوله : " محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي شهاب الدين ، أبو الثناء : مفسر ، محد ، أديب ، من المجددين ، من أهل بغداد ، مولده ووفاته فيها . كان سلفي الاعتقاد ، مجتهداً . تقلد الإفتاء ببلده سنة 1248هـ . وعزل فانقطع للعلم

، ثم سافر (سنة 1262هـ) إلى الموصل فالآستانة ، ومر بماردين وسيواس ، فغاب 21شهراً وأكرمه السلطان عبد المجيد . وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما بدأ به من مصنفاته ، فاستمر إلى أن توفي " [1]

ب- المولد والنشأة :

ولد أبو الثناء محمود الآلوسي في بغداد في (15 شعبان 1217 هـ = 11 من ديسمبر 1803م). ونشأ في بيت علم وفضل ؛ فأبوه واحد من كبار علماء بغداد ، وكان بيته كعبة للعلماء والطلاب، حيث تعقد جلسات العلم وتطرح مسائله وقضاياه المختلفة في الفقه والحديث والتفسير والنحو والبلاغة والبيان وغيرها من العلوم.

وفي هذا الجو العلمي نشأ الصبي الصغير، وتعلقت عيناه بأبيه وهو يراه يتصدر تلك الحلقات مناقشاً ومحاوراً ومعلماً، ويلقى من الحاضرين أسمى آيات التقدير والإعجاب ، وسمت نفس الصبي إلى طلب العلم وتحصيله ، وكان في نفسه استعداد عظيم للعلم ، وحافظة قوية تلتهم ما تقرأه ، وهمة عالية في المثابرة على المذاكرة ، ولم تمض عليه سنوات قليلة حتى كان قد أتم حفظ المتون في الفقه والنحو والعقيدة والفرائض قبل أن يتم الرابعة عشرة من عمره.

ولم يقتصر الآلوسي في طلب العلم على والده ، بل اتجه إلى حلقات غيره من أفذاذ العلماء في عصره ؛ فاتصل بالشيخ علي السويدي، وأمين الحلي، وخالد النقشبندي، وعبد العزيز الشواف ، ثم تطلعت همته إلى السفر إلى بيروت ودمشق ؛ ليتتلمذ على علمائها.[2]

ج- علاقته بداود باشا :

وفي تلك الفترة كانت العراق قد شهدت بواكير نهضة مباركة قام عليها داود باشا

والي بغداد النابه، فاستقدم عدداً من الخبراء الأوروبيين وعهد إليهم بإنشاء المصانع وبناء المدارس، وأقام مطبعة جديدة ، وأصدر صحيفة سماها (جرنال العراق) ، وأعاد تعمير المساجد القديمة، وعين بها جماعة من العلماء للتدريس، وكان لهذه الجهود أثر لا ينكر في تحريك الحياة الراكدة ، وكان من الطبيعي أن يجد الفتى النابه في داود باشا رمزاً للنهوض واليقظة، فوقف معه وعاونه.

ولما اشتد الخلاف بين داود باشا والدولة العثمانية، وكان هو واليا من قبلها . وقف الآلوسي في صف الوالي وآزره، وحشد الرأي العام في تأييده ومعاونته ضد الجيش العثماني الذي أحكم الحصار على بغداد، وشاءت الأقدار أن ينتشر الطاعون في بغداد فيعصف بالأهالي في غير رحمة ، وزاد الأمر سوءً فيضان دجلة بمياه كاسحة أغرقت المدينة ، ولم يجد داود باشا فائدة من المقاومة فاستسلم للجيش العثماني.

وجاء قائد الحملة ليبحث عن رجال داود باشا ومعاونيه ويزج بهم في السجون، وكان الآلوسي واحدا ممن طالتهم المحنة ، وحلت بهم المصيبة ، وزجوا في السجون.[3]

د- في كنف الوالي الجديد :

غير أن نباهة الآلوسي وسعة علمه بلغت مسامع الوالي الجديد رضا باشا، فطلب بعض مؤلفاته ليقرأها وكان على حظ من المعرفة ، فنالت إعجابه ، وأصدر أمراً بالإفراج عن الآلوسي وعينه خطيباً لجامع الشيخ عبد القادر الجيلي، وكان يحضر دروسه، فأعجب بحسن بيانه وغزارة علمه، واتفق أن أنجز كتابه "كتاب البرهان في إطاعة السلطان" فقدمه إليه، فأجازه عليه بتولية أوقاف مدرسة مرجان التاريخية ، وكانت لا تُعطي إلا للجهابذة من العلماء، ثم ولاه منصب الإفتاء في بغداد وهو في

الثلاثين من عمره ؛ تقديرًا لعلمه وكفايته ونبوغه وذكائه ، وكان يشترط فيمن يتولى هذا المنصب الجليل في الدولة العثمانية أن يكون حنفي المذهب؛ لأنه المذهب الرسمي للدولة ، وعلى الرغم من كون الآلوسي شافعي المذهب فإنه استطاع في فترة قصيرة أن يدرس المذهب في أوسع كتبه ومدوناته الكبيرة، وأن يلم بقضاياه ومسائله.

ولما ظهرت نعمة الله على الآلوسي واتسع رزقه، اشترى دارًا واسعة ، وجعل قسمًا منها مسكنًا لطلابه الذين يفدون إليه من أطراف العراق وكردستان لتلقي العلم عليه، ولم يكتف الآلوسي باستقبالهم في مسكنه، وإنما امتدت إليه مظلة كرمه، فكان يطعمهم ويتكفل بهم.[4]

هـ- محنته :

لم يمكث رضا باشا في ولايته على العراق طويلا ؛ فحل مكانه محمد نجيب ، ولم يجد الآلوسي في ظل ولايته ما كان يجده عند الوالي السابق من التقدير والإجلال ، بل ضاق من مكانته ونفوذه العلمي في بغداد ، فانتهز فرصة اشتعال مظاهرة ضده واتهم الآلوسي بأنه الذي يقف خلفها، وسارع بعزله عن الإفتاء، وحاربه في رزقه ، وحال بينه وبين السفر إلى الأستانة لمقابلة الخليفة العثماني.

واضطرته هذه الظروف الصعبة إلى بيع أثاث بيته حتى يتمكن من الإنفاق على بيته وعلى العشرات من طلابه الذين يسكنون بيته، وكانت في الشيخ عزة نفس وإباء، فلم يشأ أن يعلن عن ضيق ذات يده ، وفي الوقت نفسه انشغل بإكمال تفسيره للقرآن ؛ إذ كان يجد فيه السلوى عما به من ضيق ، حتى إذا انقضت سنوات المحنة انطلق إلى الأستانة ومعه تفسيره (1267 هـ = 1851م).[5]

و- الرحلة إلى الأستانة :

وفي دار الخلافة العثمانية استقبله محمد عارف حكمت شيخ الإسلام استقبالا حسنًا،

وأشار عليه أن يكتب إلى الصدر الأعظم مذكرة عن حاله وما يرجوه، فكتب إليه، فأعجب الصدر الأعظم بما كتب ، ونعم برضا الخليفة عبد المجيد ، الذي رتب له مالا جزيلا كل عام، وعاد إلى بغداد بعد أن مكث في دار الخلافة واحداً وعشرين شهراً ، وخرجت بغداد كلها في استقباله.[6]

ز- مؤلفاته :

ترك الآلوسي مؤلفات كثيرة ، إذ كان ذا قلم سيال ، وفكر متدفق ، ومنطق منظم ، وبدأ التأليف منذ فترة باكرة وهو في الثالثة عشرة ، ثم تتابعت مؤلفاته تترى في حياته المديدة ، ومن هذه المؤلفات :

- " الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية" ، وهو إجابة لأسئلة بعث بها إليه أهالي الهند يستفتونه في بعض المسائل ، وقد أجازه السلطان العثماني محمود الثاني على هذا الكتاب جائزة سنية (قيمة).
- "الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية " ، ويحتوي على ثلاثين مسألة مهمة في الفقه والتفسير واللغة والمنطق.
- " نشوة الشمول في السفر إلى إستانبول "، ودوّن فيه رحلته إلى عاصمة دار الخلافة واصفاً ما نزل به المدن، ومن قابله من الناس ، وهي تعد وثيقة تاريخية تسجل فترة زمنية من التاريخ الاجتماعي والثقافي لأمتنا.

سـُفْرة الزاد لسـَفْرة الجهاد دعا فيها المسلمين إلى اليقظة علمياً واقتصادياً وعسكرياً، وأعلن أن الجهاد فريضة محتومة أمام اعتداءات الاستعمار.[7]

ح- روح المعاني :

أجل إنتاج الآلوسي وأعظم آثاره التي جعلت له اسماً مدوياً ، وجلبت له الذيوع والشهرة ، وأنزلته منزلة رفيعة بين كبار العلماء . هو تفسيره المعروف بـ"روح المعاني"

في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني ، وهو تفسير جامع لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير مثل : " تفسير ابن عطية " ، و" تفسير أبي حيان" ، و" الكشاف " للزمخشري ، و" تفسير أبي السعود" ، و" تفسير البيضاوي" ، و" تفسير الفخر الرازي" ، وصاغ من ذلك كله تفسيره بعد أن أطال النظر فيما قرأ ، ووازن وقارن ورجح ما اختاره، معتمداً على زاد كبير من الثقافة الواسعة في علوم الشرع واللغة.

وتوسع الآلوسي في تفسيره في المسائل البلاغية ، وعني بمسائل النحو ، ولزم حدود الاعتدال في مناقشة الآراء الفقهية المخالفة للمذهب الحنفي.[8]

ط- وفاة الآلوسي :

كان الآلوسي إماماً لمدرسة كبيرة امتدت به، وتأثرت بطريقته ومنهجه في التأليف ، ولولاه لربما تأخرت النهضة العلمية في العراق ؛ لأن تلاميذه حملوا رآيته ونهجوا طريقته، فاتصل تأثيره في الأجيال اللاحقة ولم ينقطع، وقد مُدح في حياته و رُثي بعد مماته بأشعار كثيرة لم تتح نظائرها إلا للملوك والأمراء ، وقد جمع تلميذه الأديب عبد الفتاح الشواف ، وابنه أبو البركات نعمان خير الدين هذه الأشعار في كتاب كبير من مجلدين سمياه: " حديقة الورود في مدائح أبي الثناء محمود ".

ولم تطل الحياة بعد عودة الآلوسي من عاصمة دار الخلافة ، حيث لقي ربه في (25 من ذي القعدة سنة 1270 هـ = 19 أغسطس 1854م).[9]

ثانيا- حد الكناية عند الآلوسي من خلال تفسيره :

يجب . ونحن بصدد الحديث عن حد الكناية عند الألوسي من خلال تفسيره روح المعاني . أن نعرض بداية إلى قول كبار البلاغيين في تعريف الكناية ؛ فها هو عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغين يتكلم عنها معرفاً لها بقوله : " والمراد بالكناية هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له

في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم : هو طويل النجاد ، يريدون طويل القامة ، وكثير الرماد ، يعنون كثير القرى ، وفي المرأة نؤوم الضحى ، والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يرادفه في الوجود ، وأن يكون إذا كان أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد ، وإذا كثر القرى كثر رماد القِرى ؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى " [10]

وواضح من حديث الشيخ عبد القاهر أنه يرى أن الكناية عنده هي الانتقال من اللازم إلى الملزوم هذا يعني أن الألفاظ المذكورة في الكناية لها معنيان:

أولهما : متلو وسابق في الوجود وهو المعنى الكنائي كطول القامة وكثرة القرى مثلاً ، وهذا المعنى هو الغرض الأصلي والهدف المنشود الذي سيقت الكناية من أجله .

ثانيهما : تال ومسبوق في الوجود وهو المعنى الحقيقي لهذه الألفاظ كطول النجاد وكثرة الرماد ، وهذا المعنى ليس مقصوداً بذاته ؛ بل ليكون إشارة ووسيلة إلى إفادة المعنى الكنائي المراد ؛ وتأسيساً على هذا يكون المعنى الكنائي متلواً وملزوماً والمعنى الحقيقي تالياً ولازماً [11].

أما الزمخشري فيرى أن الكناية يمكن أن يكون الانتقال فيها من الملزوم إلى اللازم أو من اللازم إلى الملزوم فقد أورد قوله ـ عند تفسير قوله تعالى فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ ..." (البقرة ، 24) ـ :" ... فإن قلت : ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله ؟ قلت إنهم إذا لم يأتوا بها ، وتبيّن عجزهم عن المعارضة . صحّ عندهم صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم

– وإذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ، ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار فقيل لهم : إن استبنتم العجز فاتركوا العناد فوضع (فاتقوا النار) موضعه ؛ لأن اتقاء النار لصيقة وضميمة ترك العناد ، من حيث أنه من نتائجه ؛ لأن من اتقى النار ترك المعاندة ؛ ونظيره أن يقول الملك لحشمه إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي ، يريد فأطيعوني واتبعوا أمري وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة . . ." [12] ، وعلق عليه بقوله : وهذا الكلام يفيد أن الانتقال في الكناية من الملزوم إلى اللازم ؛ لأن اتقاء النار هو المذكور ، والمراد ترك المعاندة ، وترك المعاندة لازم لاتقاء النار " (13).

وأورد قوله عند تفسير قوله تعالى: "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ..." (البقرة ، 28) . " ... فإن قلت قد تبين أمر (الهمزة) وأنها لإنكار الفعل والإيذان باستحالته في نفسه أو لقوة الصارف عنه فما تقول في (كيف) حيث كان إنكار الحال التي يقع عليها كفرهم ؟ قلت : حال الشيء تابعه لذاته فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال فكان إنكار حال الكفر لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر وثباتها على طريق الكناية ، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ وتحريره أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها ، وقد علم أن كل موجود لا ينفك عن حال وصفه عند وجوده ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات ـ كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني " [14] .

وعلق عليه بقوله :" وهذا واضح في الانتقال من اللازم إلى الملزوم وبذلك يطمئن إلى أنه لا يحدد الانتقال في الكناية بطريق دون آخر " [15].

ويرى السكاكي أن الانتقال في الكناية من اللازم إلى الملزوم فقد قال : " الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينقل من المذكور إلى

المتروك كما نقول (فلان طويل النجاد) ؛ لينتقل منه إلى ما هو ملزومه ، وهو طول القامة ." ، وكما نقول (فلانة نؤوم الضحى) ؛ لينتقل منه إلى ما هو ملزومه ، وهو كونها مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات . . ." (16).

فالمعنى الكنائي وهو طول القامة مثلاً عنده ملزوم ، والمعنى الحقيقي للفظ لازم وهو في هذا موافق لرأي عبد القاهر الذي سبق ذكره ويرى الخطيب القزويني أن الانتقال في الكناية من الملزوم إلى اللازم فقد عرفها بقوله : " لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ كقولك : فلان طويل النجاد أي طويل القامة وفلانة نؤوم الضحى أي مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات . . . " (17) ، وواضح من قوله لفظ أريد به لازم معناه إن اللفظ المذكور في الكناية ملزوم والمعنى الكنائي المقصود منه لازم .

وبهذا لم تكن إذن مسألة الانتقال محل اختلاف بين البلاغيين فمنهم من رأى أن الانتقال فيها من اللازم إلى الملزوم كالشيخ عبد القاهر والسكاكي ، ومنهم من رأى أن الانتقال من الملزوم إلى اللازم كالخطيب ، ومنهم من جمع بين الوجهين السابقين فجعل الانتقال فيها يمكن أن يكون من اللازم إلى الملزوم ، أو عكسه وهما الزمخشري والإمام الرازي .

أما فيما يتعلق بالآلوسي فلم أجده يشذ في مسألة الانتقال، فهو متفق مع الرازي في أن الكناية هي ذكر اللازم وا إرادة الملزوم ، فقد ذكر عند تفسير قوله تعالى: " فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا " (النساء ، 3) ؛ إذ انتصر لرأي الشافعي في تفسير **أَلَّا تَعُولُوا** " ، " وأجيب بأن الإمام الشافعي في هذا التفسير سلك سبيل الكناية فقد جعل ـ رضي الله عنه ـ الفعل في الآية من عال الرجل عياله يعولهم ، كقولك ما لهم يمونهم إذا أنفق عليهم ومن

كثرت عياله لزمه إن يعولهم فاستعمل الإنفاق وأراد لازم معناه وهو لكثرة العيال . . .[18].

وفي معرض أقسام الكناية سيتبين لنا – إن شاء الله – أن الآلوسي في مسألة الانتقال هذه لا يناقض نفسه بل يلتزم ما ذهب إليه في أن الكناية هي الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، والله أعلم .

ب– الكناية بمعنى الضمير عند الآلوسي:

لا يستعمل الآلوسي لفظة (الكناية) صراحة بمعنى ضمير الغائب، أو الغائبة أو الغائبين في مواضع من تفسيره ، لكني وجدته يشير إليها دون تصريح أو توضيح فمن ذلك الكناية بمعنى ضمير المفردة الغائبة ما ذكره عند قوله تعالى: "فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا " (البقرة ، 66) . فقد ذكر في مرجع الضمير عدة وجوه أحدها : الضمير للقرية , ثانيها : للحيتان [19] ، لكن وجدته في الآية "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ..." (آل عمران ، 191) استعمل الكناية في الضمير ، وإن لم يذكرها صراحة بمعنى الإشارة فقال: "مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ " ، الإشارة إلى السماوات والأرض ... والمعنى ربنا ما خلقت هذا المخلوق [20] . وهذا استعمال للكناية بمعناها اللغوي لأنه يدل على المشار إليه دون تصريح أو توضيح.متداول كثيرا في كتب المفسرين(21) ، وليست بدعاً عن الآلوسي ففي " مجاز القرآن " لأبي عبيدة معمر بن المثنى ما يفيد أنه كان يطلق الكناية على ضمير الغيبة ،أثناء شرحه للآية ، "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه" . يقول: " قتال مجرور بالجوار لما كان بعده فيه كناية عن الشهر الحرام" ، يعني ضمير الغيبة الهاء وهذا يدل على أن استعمال الكناية بمعنى الضمير معروف لدى بعض السابقين عليه ، ومسطور في كتبهم (22)،

ج- الكناية والمجاز عند الآلوسي:

لم يقرن الآلوسي بين الكناية ، والمجاز بنوعيه المرسل أو الاستعارة كما هو الحال عند بعض البلاغيين (23) ، بل وجدته يدفع الكناية بعيداً عن المجاز بمعنى أنهما ليستا شيئاً واحداً عنده فعند تفسير قوله تعالى: "كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ . . ." (المائدة ، 64) . قال : " ... فإيقاد النار كناية عن إرادة الحرب ... " ، وقد كانت العرب إذا تواعدت للقتال جعلوا علامتهم إيقاد نار على جبل ، أو ربوة ، ويسمونها نار الحرب ، وهي إحدى نيران مشهورة عندهم ، وإطفاؤها عبارة عن دفع شرهم " ، وها هو يفضل القول بالكناية على المجاز مما يدل على أنهما ليسا شيئاً واحداً عنده ؛ يقول : " وعن الجمهور أن الكلام مخرج الاستعارة ، والمراد من إيقاد النار إظهار الكيد بالمؤمنين الشبه بالنار في الإضرار ، ومن إطفائها صرف ذلك عن المؤمنين ولعل القول بالكناية ألطف منهما . . . " (24).

د . إرادة المعنى الحقيقي في الكناية أو عدمها :

أما فيما يتعلق بالكناية من حيث إرادة المعنى الحقيقي فقد صرح الآلوسي في بعض المواضع بما يفيد أن المعنى الحقيقي يمكن أن يكون غير متحقق في الواقع ، فقد قال في تفسيره لقوله تعالى: "وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ . .." (آل عمران ، 120) ، أي لأجل الغضب والحنق لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ونصرة الله تعالى إياهم بحيث عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلاً واضطروا إلى مداراتهم ، وعض الأنامل عادة النادم الأسيف العاجز ؛ ولهذا أشير به إلى حال هؤلاء وليس المراد أن هناك عضاً بالفعل ، أي كناية عن الندم، وإن لم يكن الآلوسي استعمل كلمة (كناية) إذ استبدلها بكلمة (أشير) ؛ وعليه فهي من الكنايات المشهورة كثيرة الدوران ؛ فالآلوسي في موضع آخر . نقل عن

الزمخشري ما يفيد بأن الكناية إذا اشتهرت بين الناس تصبح مجازاً ومع هذا فهو هنا لم يقل في أن العض مجاز؛ مما يقوي زعمنا بأنه لا يفيد المجاز في المعنى الكنائي وا ٍن بعد عن الواقع واشتهر بين الناس (25)، وأكثر من ذلك وجدته يضع حداً فاصلاً بين المجاز والكناية خاصة المجاز المرسل عند تفسيره لقوله تعالى : فَلاَ يَكُن فِيْ صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ... " (الأعراف ، 2) ، فقد قال :" أي شك ، كما قال ابن عباس وغيره وأصله الضيق واستعماله في ذلك مجاز – كما في الأساس – علاقته اللزوم فإن الشاك يعتريه ضيق الصدر كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه ، والقرينة المانعة هي امتناع حقيقة الحرج والضيق من الكتاب وا ٍن جوزتها فهو كناية (26) ؛ فقوله إن جوزتها فهو كناية يقصد جواز الحقيقة في الكناية ، وعدم جوازها في المجاز ، وهذا هو الفرق الذي وضعه بين الكناية والمجاز ؛ إذ أن المجاز لا يمكن إرادة المعنى الحقيقي فيه بعكس الكناية حيث يمكن إرادة المعنى الحقيقي

هـ – بين التعريض والكناية عند الآلوسي:

عرض الآلوسي لمفهوم التعريض أثناء تفسيره لقوله تعالى : "فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء ... " (البقرة ، 235) ، فقد فسرها بقوله : " بأن يقول أحدكم كما روى البخاري وغيره عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – إني أريد التزوج ، وا ٍني من شأني النساء ، ولوددت أن الله تعالى كتب لي امرأة صالحة ، أو يذكر للمرأة فضله وشرفه ، فقد روى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دخل على أم سلمة ، وقد كانت عند ابن عمها أبي سلمة فتوفي عنها فلم يزل يذكر لها منزلته من الله تعالى ، وهو متحامل على يده حتى أثَّر الحصير في يده من شدة تحامله عليها ، وكان ذلك تعريضاً لها ".

ثم يذكر الآلوسي في أعقاب تفسير هذه الآية تعريفه للتعريض فيقول : " والتعريض في الأصل إمالة الكلام عن نهجه الى عرضٍ منه وجانب ، واستعمل في أن تذكر شيئاً مقصوداً في الجملة بلفظه الحقيقي ، أو المجازي ، أو الكنائي ؛ ليدل بذلك الشيء على شيء آخر لم يذكر في الكلام ، مثل أن تذكر المجيء للتسليم بلفظه ؛ ليدل على التقاضي ، وطلب العطاء ، وهو غير الكناية ؛ لأنها إن تذكر معنى مقصوداً بلفظ آخر يوضع له ، لكن استعمل في الموضوع لا على وجه المقصد ، بل لينتقل منه إلى الشيء المقصود ؛ فطويل النجاد مستعمل في معناه ، لكن لا يكون المقصود بالإثبات ، بل لينتقل منه إلى طويل القامة " [27].

وهذا يعني أن الآلوسي يفرق بين الكناية والتعريض ولعله بهذا متأثر بصاحب الكشاف ؛ فالزمخشري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ... ﴾ (البقرة ، 235) ، قال : " فإن قلت أي فرق بين الكناية والتعريض ـ قلت الكناية أن نذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طويل النجاد والخمائل لـ(طويل القامة) ، وكثير الرماد لـ(لمضياف) ، والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم . . . " [28].

وهو أيضاً متأثر به في تسمية التعريض تلويحاً فقد قال : " والمشهور تسمية التعريض تلويحاً لأنه يلوح منه ما تريده [29] ، فجعل المعنى الكنائي مذكوراً بغير لفظه والمعنى التعريضي ليس مذكوراً لا بلفظه ولا بغير لفظه ، ولكنه مدلول عليه بالعبارة التعريضية ، وألمح في ظلال كلماته أن التعبير الكنائي يحدد المُكنَّى عنه ، ويرسم ملامحه وسماته ، وكأنه بارز يُرى ويُشاهد ، وأن العبارة التعريضية إن أشارت إلى المعنى التعريضي في الجملة . إلا أنها لا تحيط بجوانبه ، ولا تلم بأطرافه

؛ لأنها تحتاج إلى معرفة السياق وقرائن الأحوال .

وهذا الاتجاه الذي ارتضاه صاحب الكشاف . قد سلكه البلاغيون من بعده ، واستقر الرأي لديهم على أن التعريض غير الكناية ؛ لأن المعنى الكنائي دلالة لفظ ، والمعنى التعريضي دلالة فحوى [30] ، وعليه ينبغي أن تكون دراستنا للتعريض عند الآلوسي بمعزل عن الكناية تماماً ، فهو يفرق بينهما ولا يجعلها مرادفاً لها ، كما أن التعريض عنده بمعنى التلويح ، وليس أدلّ على توجهه هذا في التفريق بين الكناية والتعريض في الآية : " وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ . . ." (البقرة ، 235) ، والتي ذكرنا تفسيره لها سابقاً .

ومن ذلك أيضاً عند تفسير قوله تعالى : " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ " (النحل ، 196) ، فقد قال ـ بعد أن أوضح مناسبة الآية ، ناقلا كلاماً للقرطبي . : " إن ما أطبق عليه المفسرون ، وما ذكر من لزوم عدم الارتباط عليه ليس بشيء ؛ فإن البينة على تلك القضية – يقصد قضية المعاقبة بالمثل – للإشارة إلى أن الدعوة لا تخلو من مثل ذلك ، وأن المجادلة تجر إلى المجالدة فإذا وقعت فاللائق ما ذكر . . ." ، وفي تقييد الأمر بقوله سبحانه : " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ " ، حث على العفو تعريضاً ، كما في "إن الشرطية" في الدلالة على عدم الجزم بوقوع ما في حيزها فكأنه قيل : " لا تعاقبوا وا ِن عاقبتم . . . الخ " ، كقول طبيب لمريض سأله عن أكل الفاكهة ، إن كنت تأكل الفاكهة فكل الكمثرى[31] ثم ذكر المرتبة الثانية التي اشتملت عليها الآية وهي الانتقال من التعريض إلى التصريح في قوله : " وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ " ، وهذا يصرح فيه إرشادا الى أنه إن صبرتم فهو شيمتكم المعروفة [32]

فالآلوسي – على ما يرى الباحث – لم يفرق بين التعريض والإشارة بل

جمعهما في سياق واحد .

وكاد أن يشكل الأمر على الباحث لما وجد الرازي في تفسيره الكبير يضيف إلى تفسير الآلوسي لقوله تعالى " عبارة الرمز ، حين قال : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ " ، دليل على أن الأولى له ألاّ يفعل كما أنك إذا قلت للمريض إن كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح كأن معناه الأولى بك ألاّ تأكله فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض على أن الأولى تركه (33) , لولا أن صاحب الطراز يقول : " . . . فأما ما كان من التلويح والرمز والإشارة فكلها مندرجة تحت ما ذكرناه من حقيقة التعريض لاتفاقهما في الدلالة على مقصود واحد . . . " (34).

ثالثا – أقسام الكناية عند الآلوسي :

عرف الآلوسي في تفسيره لأقسام الكناية الثلاثة المعروفة فوقف عند كثير من الكنايات القرآنية يحللها وبيَّن فضلها ومكانتها في بلاغة القرآن الكريم وسأتناول إن شاء الله هذه الكنايات الثلاث.

أ – الكناية عن نسبة :

أشار إلى هذه الكناية عند قوله تعالى في شأن بعض الكتابيين : " ... أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً ... " (المائدة ، 60) عندما نقل عن بعض المحققين قولهم : " فقد صرحوا إن إثبات الشرارة لمكان الشيء كناية عن إثباتها له كقولهم سلام على المجلس العالي، والمجد بين برديه , فكان شرهم أثر في مكانهم ، أو عظم حتى صار مجسماً " (30)

ب–الكناية عن صفة:

تكلم الآلوسي عن هذه الكناية في مواطن كثيرة من تفسيره فمن المواطن التي صرح فيها بأن التعبير كناية – ما ذكره عند تفسير قوله تعالى" فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ

فقد قال: "يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ" كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ... " (الكهف ، 42)

. . كناية عن الندم والتحسر ولكونه كناية عن الندم عدى بـ(على) في قوله : " عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا " ، فالجار والمجرور ظرف لفظ متعلق بـ(يقلب) كأنه قيل فأصبح يندم على ما أنفق , ومنه يعلم أنه يجوز في الكناية أن تعدى بصلة المعنى الحقيقي . . . " (36) ،أحيانا يكتفي بشرح الكناية دون التصريح بها ، ومن ذلك عند تفسيره قوله تعالى: "وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ... " (الكهف ، 42) ، أي ساقطة وسقوط الجنة على العروش لسقوطها قبلها ، ولعل ذلك لأنه قد أصاب الجنة من العذاب ما جعلها صعيداً زلقاً لا يثبت فيها قائم ، والمقصود من العروش الأعمدة التي توضع عليها الكروم ، ولعل تخصيص الكروم بالذكر دون النخل والزرع، إما لأنها العمدة وهما من متمماتها وا إما لأن ذكر هلاكها على ما قيل مغنٍ عن ذكر هلاك الباقي ...(37)، وحاصل الكلام أن هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها(38).

ومن المواضع التي صرح فيها بلفظ الكناية عن صفة أيضاً ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً "(الإنسان ، 8) ، بعد أن شرح الآية وبيَّن ما فيها من معانٍ : "... وقيل – يقصد يطعمون – هو كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأي وجه كان وا إن لم يكن ذلك بالطعام بعينه فكأنه ينفعون بوجوه المنافع ..." (39) .

ج– الكناية^0 عن موصوف :

تأتي الكناية الدالة على الموصوف مفردة أو مركبة (40) ، وقد أشار الآلوسي إلى هذين النوعين في مواضع من تفسيره فمن المواضع التي ذكر فيها الكناية في اللفظ المفرد ما حكاه عن بعضهم ولعله ذهب مذهبهم نفسه ، عند قوله تعالى : " وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (الأعراف ، 8) ، فقد قال : "

وقد قيل الوزن عبارة عن القضاء واستعمال لفظ الوزن في هذا المعنى شائع في اللغة والطرق بطريق الكناية وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك . . . " (41) ويبدو للباحث – كما أسلف – أنه ذهب المذهب نفسه حين صرح قائلاً : " فما الوزن ؟ أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذٍ ويظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هي عليه وبأوصافها وأحوالها في أنفها من الحسن والقبح وغير ذلك ، وتتخلع في الصورة المستعارة التي لها ظهرت في الدنيا فلا يبقى لأحد ممن يشاهدها شبهة في أنها هي التي كانت في الدنيا . . . (42)، لأن ظهور الأشياء بحقيقتها يستلزم الحكم عليها بالعدل لأنها مجال حينئذٍ للشك ، والله أعلم .

ومن النوع الثاني : وهو الكناية المركبة التي يدل مجموع ألفاظها على موصوف مراد ما أشار إليه عند قوله عن سفينة نبي الله نوح عليه السلام " لْذ َاه ُ عَ لَى ذَات ِ أَلْو َ احٍ و َ د ُس ُ رٍ " (القمر ، 13) ، فقد قال : " أخرج عن مجاهد أنها عوارض السفينة ، أي الخشبات التي تعرض في وسطها وفي رواية عنه هي أضلاع السفينة وأياً كان في قوله تعالى " أَلْوَ احٍ و َ د ُس ُ رٍ " من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات على سبيل الكناية كقولهم في مستوي القامة عريض الأظفار في الكناية عن الإنسان وهو من فصيح الكلام وبديعه (43) .

رابعا – بلاغة الكناية عند الألوسي:

لم يغفل الألوسي في درسه للكناية أن يشير إلي بلاغة التعبير بها أو سر العدول إليها التي أشار إليها العلماء كالرازي علي سبيل المثال في كتابه " نهاية الإيجاز" ، حين قرر أن السبب في كون الكناية أبلغ من الإفصاح هو أن الكناية ذكر الشئ بواسطة ذكر لوازمه، ووجود اللازم يدل على وجود الملزوم، ومعلوم أن ذكر الشئ مع دليله أوقع في النفوس من ذكر الشئ لا مع دليله ، فلأجل هذا كانت

الكناية أبلغ[44] ، فلعل هذا ما جعل الألوسي يصرح بعد عرضه السابق للكناية عن نسبة ـ علي سبيل المثال لا الحصر ـ في قوله تعالى: "لئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً ... " (المائدة ، 60) "إثبات الشرارة لمكانهم ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم " [45] .

وختاما أورد النتائج التي توصلت إليها وهي :

-لم يخرج الآلوسي في استعماله للكناية كوسيلة بيانية لمعرفة دقائق التفسير القرآني عن اتجاهات البلاغيين في اعتبار الكناية هي الانتقال من اللازم إلى الملزوم.

– لم يغفل الآلوسي الفرق بين الكناية والمجاز والكناية والتعريض في شرحه للآيات القرانية– بالرغم من أن الآلوسي ليس بلاغيا بالدرجة الأولى إلا أنه عرض للكناية بتقسيماتها المحتلفة كما هي عند البلاغيين ؛ مما يعني رسوخ ثقافة الآلوسي البلاغية ومدى الاستفادة منها في تفسير القرآن.

3– انتبه الألوسي في تفسيره لبلاغة الكناية فأشار الي مزيتها في التعبير والبيان .

كما أوصي بالآتي:

1– الاهتمام بالبلاغة خاصة علم البيان في مجال الدراسات التطبيقية القرآنية.

2– دعم الدراسات التطبيقية القرآنية بالمباحث البيانية في علم البلاغة للوصول إلى دقائق تفسير القرآن.

3– ضرورة إفساح المجال لمعرفة اتجاهات الآلوسي في الأدوات البيانية والبلاغية الأخرى (التشبيه، الاستعارة، والمجاز المرسل) ودراسة دورها في توضيح البيان القرآني في تفسير روح المعاني.

المصادر والمراجع :

1- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء في العرب و المستعربين و المستشرقين ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملاين ، بيروت 1986 م. ج 7 ص 176.

2 – النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، محمد رجب البيومي، دار القلم ، دمشق ،1415هـ ، ص112.

3 – (المرجع السابق) ، ص112.

4 – ذكري أبي الثناء،عباس العزاوي ، الألوسي ، بغداد 1958م ، ص905.

5 – النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، محمد رجب البيومي ، (مرجع سابق) ، ص 112

6 – (المرجع السابق) ص 112.

7 – الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء في العرب و المستعربين و المستشرقين ، خير الدين الزركلي ، (مرجع سابق) ج 7 ص 176

8 – التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ج2 ، ص63.

9 – ذكري أبي الثناء ، الألوسي ، عباس العزاوي ، (مرجع سابق)، ص210.

10 – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر 1404هـ ، ص 66.

11 – المباحث البيانية في تفسير الفخر الرازي، أحمد هنداري هلال، مكتبة وهبة 1999م ص 344.

12– البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، الدكتور محمد أبو موسى، دار الفكر العربي.د ت، ص 457.

13 – البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، (مرجع سابق) ، ص 457.

14 – (المرجع السابق) ، ص 457.

15– (المرجع السابق) ، ص 458.

16 – مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، دار الكتب العلمية 240هـ، بيروت ، لبنان ص 189.

17– بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، المطبعة النموذجية 1973 مصر ج 3، ص 173.

18– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي ، دار الكتب العلمية 1422 هـ ، ج 3 ص 308

19 – (المرجع السابق) ج1، ص449.

20 – (المرجع السابق) ج 4 ص 268.

21– مصطلحات بيانية ، مصطفي التلب ، مكتبة وهبة ،1999،ص135.

22– مجاز القران ، أبي عبيدة معمر بن المثني تحقيق: محمد فؤاد سزكين ،ط: الخانجي، ج1، ص72.

23 – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، (مرجع سابق) ج 2 ، ص 226.

24 – الكشاف ، الزمخشري ، دار المعرفة ، بيروت ، ج1، ص346 .

25 – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني الألوسى (مرجع سابق) ج 2 ، ص 227.

26 – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، الألوسي (مرجع سابق) ، ج5 ، ص79 .

27 – (المرجع السابق) ج 8 ، ص382.

28– (المرجع سابق) ج 2، ص382.

29– التفسير الكبير ، الأمام فخر الدين الرازي ، طبعة 143، ج1 ، ص 23.

30 – الطراز ، العلوي، دار الكتب العلمية ، بيروت 1402هـ،ج2 ، ص 426.

31– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، الألوسي (مرجع سابق) ، ج 4 ، ص 259.

32 – (المرجع السابق) ، ج 4 ، ص 259.

33 – (المرجع السابق) ، ج 4 ، ص 259.

34 – (المرجع السابق) ، ج 9 ، ص 409.

35– (المرجع السابق) ج 15، ص 17

36 – بغية الإيضاح ، عبد المتعال الصعيدي، (مرجع سابق) ج 3 ، ص 175 ، 176 .

37– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، الألوسي (مرجع سابق) ، ج5 ، ص 124.

38 – (المرجع السابق) ، ج5 ، ص 124.

39 – (المرجع السابق) ، ج15 ، ص 171

40 – بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، (مرجع سابق) ج 3، ص 173.

41– روح المعاني تفسير القرآن العظيم و السابع المثاني ، الألوسي،(مرجع سابق) ،ج5 ، ص 124.

42– (المرجع السابق)، ج5 ، ص 124.

43 – (المرجع السابق) ، جـ 1، ص 449 .

44 – نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق نصر الله حاجي، دار صادر2004 م ، ص 115.

45 – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني(مرجع سابق)،ج5 ، ص 124.